منيعاً يفصلني عن زوايا الحياة واهوالها ويجعل كياني محدوداً بما فيه السلامة ، متاحياً عما يساوره من الراحة والطمأنينة . ولقد كان بامكاني ان اعيش نظير كن ملتصقة بالتراب حتى يغمرني الشتاء بثلوجه واذهب كن ذهب قبلي الى سكينة الموت والعدم قبل ان اعرف من اسرار الوجود وخباياه غير ما عرفته طائفة البنفسج منذ وجد البنفسج على سطح الارض . لقد كان بامكاني الانصراف عن المطامع والزهد في الامور التي تطوطيها عن طيقي . ولكن اصغيت في سكينة الليل فسمعت العالم الاعلى يقول لهذا العالم « انما القصد من الوجود الطموح الى ما وراء الوجود » فتمردت نفسي على نفسي وهام وجداني بمقام يعلو عن وجداني . ومازلت اتمرد على ذاتي واشوق الى ما ليس لي حتى انقلب تمردي الى قوة فعالة واستحال شوقي الى ارادة مبدعة فطلبت الى الطبيعة — وما الطبيعة سوى مظاهر خارجية لاحلامنا الخفية — ان تحولني الى وردة ففعلت ، وطالما غيرت الطبيعة صورها ورسومها بأصابع الميل والتشويق

وسكتت الوردة هنيهة ثم زادت بلهجة مفعمة بالفخر والتفوق

— اي لقد عشت ساعة كوردة ! . لقد عشت ساعة كملكا ! . لقد نظرت الى الكون من وراء عيون الوردة ، وسمعت همس الاثير بآذان الورود ، ولمست ثنايا النور بأوراق الورود فهل يتمكن من تستطيع ان تدعي شرفي ؟ » ثم لوت عنقها ، وبصوت يكاد يكون لهاثاً قالت

— « انا اموت الآن . اموت وفي نفسي ما لم تكنه نفس بنفسجة من قبلي . اموت وانا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذي ولدت فيه . وهذا هو القصد من الحياة . هذا هو الجوهر الكائن وراء اعراض الايام والليالي » . واطبقت الوردة اوراقها وارتعشت قليلاً ثم ماتت وعلى وجهها ابتسامة علوية — ابتسامة من حققت الحياة امانيه — ابتسامة النصر والتغلب — ابتسامة الله

الشاعر ومستقبل اللغة العربية

ان خير الوسائل ، بل الوسيلة الوحيدة لاحياء اللغة هي في قلب الشاعر وعلى شفتيه وبين اصابعه ، فالشاعر هو الوسيط بين قوة الابتكار والبشر ، وهو السلك الذي ينقل ما يحدثه عالم النفس الى عالم البحث ، وما يقرره عالم الفكر الى عالم الحفظ والتدوين

الشاعر أبو اللغة وأمها تسير حيثما يسير وتربض اينما يربض ، واذا ما قضى جلست على قبره باكية منتحبة حتى يمر بها شاعر آخر ويأخذ بيدها . واذا كان الشاعر ابا اللغة وامها فالمقلد ناسج كفنها وحفار قبرها ، اعني بالشاعر كل مخترع كبيراً كان او صغيراً ، وكل مكتشف

قوياً كان او ضعيفاً، وكل مختلق عظيماً كان او حقيراً، وكل محب للحياة المجردة اماماً كان او صعلوكاً، وكل من يقف متهيباً امام الايام والليالي فيلسوفاً كان او ناطوراً للكرم. اما المقلد فهو الذي يكتشف شيئاً ولا يختلق امراً بل يستمد حياته النفسية من معاصريه ويصنع اثوابه المعنوية من رقع يجزها من اثواب من تقدمه

***

اعني بالشاعر ذلك الزارع الذي يفلح حقله بمحراث يختلف ولو قليلاً عن المحراث الذي ورثه عن ابيه فيجيء بعده من يدعو المحراث الجديد باسم جديد، وذلك البستاني الذي يستنبت بين الزهرة الصفراء والزهرة الحمراء زهرة ثالثة برتقالية اللون فيأتي بعده من يدعو الزهرة الجديدة باسم جديد، وذلك الحائك الذي ينسج على نوله نسيجاً ذا رسوم وخطوط تختلف عن الاقمشة التي يصنعها جيرانه الحائكون فيقوم بعده من يدعو نسيجه هذا باسم جديد. اعني بالشاعر الملاح الذي يرفع لسفينة ذات شراعين شراعاً ثالثاً، والبناء الذي يبني بيتاً ذا بابين ونافذتين بين بيوت كلها ذات باب واحد ونافذة واحدة، والصباغ الذي يمزج الالوان التي لم يمزجها احد قبله فيستخرج لوناً جديداً، فيأتي بعد الملاح والبناء والصباغ من يدعو تمار اعمالهم باسماء جديدة فيضيف بذلك شراعاً الى سفينة اللغة ونافذة الى بيت اللغة ولوناً الى ثوب اللغة

اما المقلد فهو ذاك الذي يسير من مكان الى مكان على الطريق التي سار عليها الف قافلة وقافلة ولا يحيد عنها مخافة ان يتيه ويضيع، ذاك الذي يتبع بمعيشته وكسب رزقه ومأكله ومشربه وملبسه تلك السبل المطروقة التي مشى عليها الف جيل وجيل فتظل حياته كرجع الصدى ويبقى كيانه كظل ضئيل لحقيقة قصة لا يعرف عنها شيئاً ولا يريد ان يعرف

اعني بالشاعر ذلك المتعبد الذي يدخل هيكل نفسه فيجثو باكياً فرحاً نادباً مهللاً مصغياً متاجياً ثم يخرج وبين شفتيه ولسانه اسماء وافعال وحروف واشتقاقات جديدة لاشكال عبادته التي تتجدد في كل يوم، وانواع انجذابه التي تتغير في كل ليلة، فيضيف بعمله هذا وتراً فضياً الى قيثارة اللغة وعوداً طيباً الى موقدها

اما المقلد فهو الذي يردد صلاة المصلين وابتهال المبتهلين بدون ارادة ولا عاطفة فيترك اللغة حيث يجدها واليان الشخصي حيث لا بيان ولا شخصية

اعني بالشاعر ذاك الذي ان احب امرأة انفردت روحه وتحت عن سبل البشر لتلبس احلامها اجساداً من بهجة النهار وهول الليل وولولة العواصف وسكينة الاودية ثم عادت لتضفر من اخبارها اكليلاً لرأس اللغة وتصوغ من اقتناعها قلادة لعنق اللغة

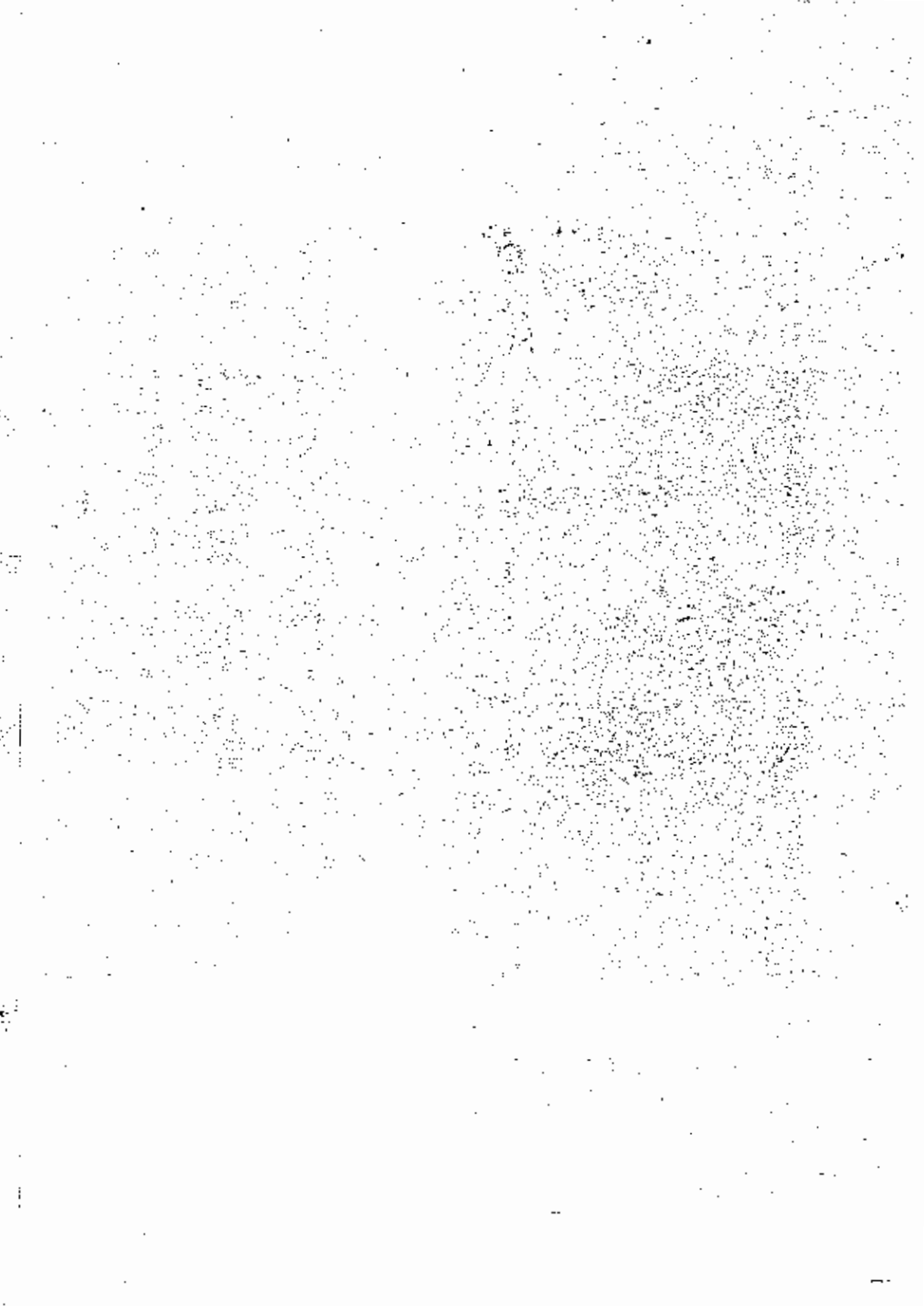

الحقُّ

والحقُّ للعزم، والارواح ان قويت   سادت وان ضعفت حلّت بها الغيرُ

اما المقلد فتلدحتى في حبه وغزله وتشبيبه فان ذكر وجه حبيبه وعنقها قال « بدر وغزال » وان خطر على باله شعرها وقدها ولحظها قال « ليل وغصن وبان وسهام » وان شكى قال « جفن ساهر وفجر بعيد وعزول قريب » وان شاء ان يأتي بمعجزة بيانية قال « حبيبتي تستمطر لؤلؤ الدمع من نرجس العيون لتسقي ورد الخدود وتعض على عناب انامها ببرد اسنانها » . يترنم صاحبنا الببغاء بهذه الاغنية العتيقة وهو يدري انهُ يسمم ببلادته دسم اللغة ويتهن بسخافته وابتذاله شرفها ونبالها

***

لقد تكلمت عن المستنبط ونفعه والعقيم وضرره ولم اذكر اولئك الذين يصرفون حياتهم بوضع القواميس وتأليف المطولات وتشكيل الجامع اللغوية — لم اقل كلة عن هؤلاء لاعتقادي بأنهم كالشاطىء بين مد اللغة وجزرها وأن وظيفتهم لا تتعدى حد الغربلة — والغربلة وظيفة حسنة ولكن ما عسى يغربل المغربلون اذا كانت قوة الابتكار في الامة لا تزرع غير الزوان ولا تحصد الا الهشيم ولا تجمع على بيادرها سوى الشوك والقطرب ؟

اقولها ثانية ان حياة اللغة وتوحيدها وتعميمها وكل ماله علاقة بها قد كان وسيكون رهن خيال الشاعر فهل عندنا شعراء ؟

نعم عندنا شعراء ، وكل شرقي يستطيع ان يكون شاعراً في حقله وفي بستانه وأمام نوله وفي معبده وفوق منبره وبجانب مكتبه . كل شرقي يستطيع ان يعتق نفسه من سجن التقليد والتقاليد ويخرج الى نور الشمس فيسير في موكب الحياة . كل شرقي يستطيع ان يستسلم الى قوة الابتكار المختبئة في روحه — تلك القوة الازلية الابدية التي تقيم من الحجارة ابناء له

***

اما اولئك المتصرفون الى نظم مواهبهم ونثرها فلهم اقول : ليكن لكم من مقاصدكم الخصوصية مانع عن اقتفاء اثر المتقدمين خير لكم وللغة العربية ان تبنوا كوخاً حقيراً من ذاتكم الوضيعة من ان تقيموا صرحاً شاهقاً من ذاتكم المقتبسة . ليكن لكم من عزة نفوسكم زاجر عن نظم قصائد المدح والرثاء والتهنئة خير لكم وللغة العربية ان تموتوا مهملين محتقرين من ان تحرقوا قلوبكم بخوراً امام الانصاب والاصنام . ليكن لكم من حماستكم القومية دافع الى تصوير الحياة الشرقية بما فيها من غرائب الالم وعجائب الفرح خير لكم وللغة العربية ان تتناولوا بابسط ما يتمثل لكم من الحوادث في محيطكم وتلبسوها حلة من خيالكم من ان تترجموا اجل واجمل ما كتبهُ الغربيون